التحليل النقدى لنظريات علم المكتبات والمعلومات

د. جعفر على فضل

مقدمة:

إن جوهر علم المعلومات والمكتبات ما يزال غير مدركاً في العديد من البلدان العربية. ويدل على ذلك تعرض قسم المكتبات والوثائق والمعلومات في جامعة القاهرة للهزة العنيفة وغير المتوقعة التي كادت أن تطيح به خارج خارطة الدرجات الأكاديمية للجامعة أثناء انعقاد المؤتمر القومي للإصلاح الجامعي الذي عقد عام ١٩٦٦م. ونتج ذلك ربما من بعض أوجه النظر القاصرة عن الجهل بأهميته كسائر العلوم الأخرى. وربما كان السبب في ذلك ندرة النظريات العلمية المتاحة باللغة العربية في هذا المجال. ولكن ذلك ليس بالسبب المبرر لتلك الهجمة الشرسة ضد بقائه في الخارطة الأكاديمية بالجامعة.

فقد يرجع السبب من وراء ذلك إلى ضعف قدرة أهل الاختصاص والمفكرين العرب في الدفاع عنه بجانب عدم اقتناع صناع القرار أنفسهم بضرورة استمراره كقسم قائم بذاته. وقد أدى ذلك إلى الشعور باليأس بين هؤلاء المفكرين وإهمال الذود عنه. وربما خالجهم الشك أن جميع الأفكار قد استهلكت ولم يعد هناك من فكر جديد وبالتالي استسلم معظمهم لقدرهم وظلوا هكذا في حيرة من أمرهم. في الولايات المتحدة، على سبيل المثال، تقدم رئيس قسم براءات الاختراع نحو عام ١٨٠٠م بطلب إغلاق المكتب بحجة أن الاكتشافات والاختراعات العلمية الجديدة قد اكتشفت واخترعت ولم تعد هناك حاجة لوجود المكتب والإنفاق عليه. إلا أن المكتب لم يُغلق ولم تتوقف عجلة الاكتشافات والاختراعات. فقد تطورت الأفكار وتعددت نتيجة لذلك الاختراعات الحديثة فاخترع الانجليزي شارلز باباج Charles Babbage أول آلة حاسبة اعتبرت نواة لاختراع الحاسوب والبرمجة ثم اخترعت حاسبات IBM الشخصية عام ١٩٨١م كأعظم إنجاز ما يزال العالم يشهد به حتى هذه اللحظة ولم تنقطع الأفكار المنتجة للاختراعات الحديثة.

الاتجاهات الحديثة فى المكتبات والمعلومات، مج ٢٠، ع ٣٩ (يناير ٢٠١٣)، ص ٢٦٣ – ٢٨١ .

فليس ثمة عقم فكري مطلقاً في أية مجال من المجالات العلمية وإنما ركود مؤقت له دوافعه ومبرراته. ولهذا ينتاب فلاسفة العلوم المعاصرين شيء من القلق حيال الأركان الجوهرية للنظرية العلمية وهي البرهان، المنطق والابستومولوجيا. ومن هذا المنطلق تأتي هذه الورقة في محاولة للإسهام والإضافة بالجديد من خلال تقديم رؤى تحليلية نقدية لعلم المكتبات والمعلومات بعد التغيرات التي اعترت جميع المجالات بحلول مطلع القرن الحادي والعشرين.

نشأة وتطور علم المكتبات والمعلومات

يعرف العلم عادة بأنه "فن إيجاد الحل الممكن للمشكلات" "the art of the soluble" (Loehle 1996)، وعند إمانويل كانط "العلم هو المعرفة المنظمة" بمعنى آخر هو الفن الذي يهتم بإيجاد حلول منطقية منظمة لطبيعة المشكلات التي تواجه الإنسانية في حياتها اليومية ويهدف إلى تنمية مداركها وفهمها للبيئة المحيطة بها. ومجال المكتبات والمعلومات هو فن وعلم يهتم بذلك الهدف بالإضافة إلى اهتمامه بإيجاد حلول منطقية ومنظمة لجمع، معالجة، اختزان واسترجاع المعلومات لمجابهة حاجة الإنسان المستمرة للمعلومات. وبناءً على ذلك فالموضوع الجوهري الذي يقوم على أساسه هذا المجال هو "المعلومات" وهي المحتوى المعرفي أو المنتج الفكري الذي يدون ويسجل في وسائط مادية tangible أو غير مادية intangible. ويعتمد على وجهين، فالوجه الأول عملي وهو المرتكز الذي يمارسه جميع المكتبيين واختصاصيي المعلومات في أعمالهم اليومية. ويمكن أن يقال في ذلك الوجه أنه يقوم على مبدأ البراجماتية pragmatism. بينما يعتمد نفس العلم في الوجه الآخر على الجانب الفلسفي النظري theoretical والذي يتناول قضاياه هذا البحث. فالتنظير دون التطبيق بمثابة التأمل دون إنتاج الأفكار كما أن التطبيق دون التنظير بمثابة الإنتاج دون تحقيق الجودة.

وبقراءة التحليل الذي قدمه وليامز في مقاله "تحسين السجل الثقافي: مسائل واتجاهات حديثه في تاريخ علم وتكنولوجيا المعلومات" يمكن النظر إلى أن علم المكتبات والمعلومات وكأنه عبارة عن مجالين منفصلين تم دمجهما معاً في فترة التحول التاريخية التي شهدها هذا العلم في نهاية عقد الستينيات من القرن الماضي (Williams 2009). ففي اللغة الانجليزية يكتب هكذا library and information science كأنما هو دمج لعلمين هما "علم المكتبات" و"علم المعلومات" في علم واحد.

فعلم المكتبات يهتم بعمليات تصنيف وتنظيم المعرفة الإنسانية بالإضافة إلى الاهتمام بالجوانب الإدارية لمرافق المكتبات. علماً أن أول مدرسة لعلم المكتبات كانت قد أنشئت في جامعة كولومبيا في الأول من يناير من عام ١٨٨٧م وكانت تسمى "مدرسة علم المكتبات الاقتصادية" وظل يطلق عليه "علم المكتبات الاقتصادي" "Library Economy" حتى عام ١٩٤٢م. وربما لهذا السبب ما يزال علم المكتبات والمعلومات يعتمد على نظريات علمي الاقتصاد والاجتماع في سعيه لفهم

سلوك المستهلك في الطلب المستمر للمعلومات. وذلك إذا علمنا أن كمية المعلومات المتاحة للاستهلاك الفردي تتضاعف كل ثلاث سنوات. وقد تأسست مدرسة علم المكتبات الاقتصادية على يد ملفيل ديوي Melvil Dewey مؤلف نظام تصنيف ديوي العشري Dewey Decimal Classification (DDC) الذي يكثر استخدامه في المكتبات وصدرت منه أول نسخة رقمية تسمى ويب ديوي WebDewey 2.0 في مايو عام ٢٠١١م للطبعة ٢٣ وهو متاح عن طريق الاشتراك السنوي على الانترنت. وصدر أول كتاب دراسي في علم المكتبات في ألمانيا لمؤلفه مارتن شريتينقر Martin Schrettinger عام ١٨٠٨م. أما أول كتاب دراسي في الولايات المتحدة كان يسمى "دليل علم المكتبات الاقتصادي" ونشر عام ١٩٢٩م. الجدير بالذكر أن الإطار الفكري الأول لعلم المكتبات كان يمثل مدرسة الفكر الشرقية في الهند وهو كتاب يحمل اسم "علم المكتبات" قد أصدره العالم الهندي شيالي رامامريتا رانجاناثان Shiyali Ramamrita Ranganathan تحت عنوان "القوانين الخمسة لعلم المكتبات" الذي نشر عام ١٩٣١م وسوف يتم تناوله ضمن الأجزاء القادمة من هذا البحث. أما الإطار الفكري لعلم المكتبات فيما عرف بالمدرسة الغربية فقد بدأ بتأليف كتاب "مقدمة في علم المكتبات" للمفكر الأمريكي بيرس بتلر Pierce Bulter ونشرته جامعة شيكاغو عام ١٩٣٣م. وارتكزت مفاهيم بتلر في دفاعه عن ضرورة تبني المنهج الكمي quantitative method والاستفادة من نظريات علم الاجتماع بهدف تسخير مفاهيم علم المكتبات لمخاطبة حاجة المجتمع للمعلومات. ومن هنا ركزت هذه الورقة على أهم مدارس الفكر في علم الاجتماع الحديث.

أما علم المعلومات فقد عرفه بوركو Borko بأنه "علم متداخل التخصصات يبحث في خواص المعلومات وسلوكها، والقوى التي تتحكم في انسيابها والإفادة منها، والأساليب اليدوية والآلية في معالجتها واختزانها واسترجاعها وبثها." (Borko 1968). ويهتم علم المكتبات والمعلومات باستقصاء خصائص وسلوك المعلومات، القوى التي تتحكم في انسياب وتدفق المعلومات واستخدام وسائل معالجة البيانات لتصبح معلومات متاحة للاستخدام. وهو مجال مركب من عدد من المجالات العلمية الأخرى بحيث يشمل ليس فقد علم الحاسوب بل يتعداه ليشمل تخصصات متنوعة كالعلوم الإنسانية والاتصال والإعلام. وفي الآونة الأخيرة اندرجت تحت عباءته العديد من المجالات الحديثة مثل التفاعل بين الإنسان والحاسوب، الويب الدلالي، ومعمارية المعلومات.

ويرجع تاريخ علم المعلومات إلى عصر النهضة، ففي عام ١٨٩٥م أنشأ المحامي والببليوجرافي بول أوتليه Paul Otlet برفقة صديقة السيناتور في البرلمان البلجيكي هنري لافونتين Henri La Fontaine المعهد الدولي للببليوجرافيا Institut International de Bibliography (IIB) في بروكسل عاصمة بلجيكا. وكان المعهد يتهم بتحقيق انجاز كبير

يتمثل في الموسوعة الببليوجرافية العالمية Universal Bibliographic Repertory (UBR) غير أنه لم يعتمد على المعايير الفنية المعروفة حالياً ولذلك فشل المشروع قبيل الحرب العالمية الأولى وأغلق المعهد في الفترة بين عام ١٩١٤ إلى ١٩٢٥م. فغير أصحاب المشروع مفهوم "الببليوجرافيا" إلى مفهوم "التوثيق" ونتج عن ذلك أن أطلق على المشروع الجديد الإتحاد الدولي للتوثيق The International Federation of Documentation (Rayward 1997).

وأسهم علماء آخرون في تطور علم التوثيق مثل إمانويل جولدبيرج Emanuel Goldberg (١٨٨١-١٩٧٠) في ألمانيا وسوزان بريت Suzanne Briet (١٨٩٤-١٩٨٩) في فرنسا. يضاف إلى ذلك إسهام أطروحة أوتو فرانك Otto Frank لنيل درجة الدكتوراه في ربط العلاقة بين التوثيق documentation والمعايرة standardization حينما اقترح فيها استخدام التصنيف العشري العالمي Universal Decimal Classification (UDC) لتنظيم المعايير في المعهد الألماني للمعايير الذي كان يديره بنفسه بالإضافة إلى شغله منصب رئيس الجمعية الألمانية للتوثيق. أما أوضاع علم التوثيق في الولايات المتحدة الأمريكية فقد كانت مغايرة لنظيرتها في أوروبا. فلم تدرس مقررات التوثيق في مدارس وأقسام علوم المكتبات إلا بعد الحرب العالمية الثانية (Buckland 2008).

وظهر علم المعلومات بمعناه الحديث عام ١٩٦٨م في الولايات المتحدة الأمريكية عندما تغير اسم المعهد الأمريكي للتوثيق إلى "الجمعية الأمريكية لعلم المعلومات والتكنولوجيا." وفي ضوء ذلك التوازي الفكري والمنهجي بين المجالين اتخذت الكليات، المدارس والأقسام الأكاديمية التي تقوم بتدريس هذين العلمين مسميات مختلفة. ويبدو أن التغيرات التي طرأت بسبب اندماج تكنولوجيا المعلومات والاتصالات، كما ذكرنا سابقاً، قد أثرت تأثيراً مباشراً على مناهج مقررات تدريس تلك التقنيات الجديدة كما سنري في هذا الجزء من البحث.

ويلاحظ أن علم المعلومات عادة ما يكون الإطار الشامل بالجامعة بينما يمثل علم المكتبات برنامجاً فرعياً، فعلى سبيل المثال لا الحصر، تقدم مدرسة علوم المعلومات التي تأسس عام ١٩٠٧م بجامعة بتسبيرج برامج دراسية في علم وتكنولوجيا المعلومات، علم المكتبات والمعلومات، علم المكتبات في الحقل الصحي وتكنولوجيا الاتصالات والشبكات. ومدرسة علم المعلومات بجامعة سيراكوز المصنفة رقم واحد في العالم في برامج نظم المعلومات. وتقدم برامج أخرى بما فيها علم المكتبات والمعلومات، إدارة المعلومات، إدارة الشبكات وتكنولوجيا الاتصالات على مستوى الماجستير. أو قد يندمجا في مسمىً واحداً كما هو الحال في مدرسة علوم المكتبات والمعلومات بكلية علوم الاتصال والمعلومات التي أنشئت عام ١٩٢٨م بجامعة تينيسي وتقدم برامجها في المعلومات والاتصالات، تكنولوجيا الويب، والعديد من البرامج الأخرى الحديثة على مستوى البكلاريوس. بالإضافة إلى مدرسة علوم المكتبات

والمعلومات بجامعة كارولينا الشمالية التي تقدم ضمن مقررات البكلاريوس البرمجة، تصميم وتطوير مواقع الويب، أمن المعلومات، إدارة الشبكات وبروتوكولات الانترنت، نظم قواعد البيانات وغيرها. وفي جامعة كاليفورنيا لوس أنجلوس فقد أنشئت مدرسة علوم المكتبات عام ١٩٣٥م وتغير اسمها بعد الحرب العالمية الثانية ليصبح مدرسة علم المكتبات والمعلومات في ضوء التحولات التي شابت تلك المرحلة من عمر علم المكتبات والمعلومات. أما في كندا، على سبيل المثال، فتوجد مدرسة علم المكتبات، الأرشيف ودراسات المعلومات بجامعة كولومبيا البريطانية.

وقد يوضع علم المكتبات والمعلومات في أحد أقسام الكليات كما هو الحال في جامعة كلكتا في الهند، وقد يتخذ شكلاً مغايراً للقسم مثل مدارس علوم المكتبات و المعلومات كما هو الحال في جامعة كينت ستيت، جامعة سان خوسيه، معهد برات، أو مدرسة المكتبات ودراسات المعلومات كما هو الحال في جامعة ولاية فلوريدا في الولايات المتحدة. وقد يتخذ مسمىً مختلفاً بعض الشيء مثل مدرسة المعلوماتية بجامعة سيتي بلندن حيث يدرس علم المكتبات ضمن المنهج الدراسي وقد يضاف إليه دراسات المتاحف مثل معهد خدمات المتاحف والمكتبات في الولايات المتحدة. وقد يدرس علم المكتبات والمعلومات كقسم منفصل داخل مدرسة مثل مدرسة علوم الاتصال بجامعة رتجرز في ولاية نيوجيرسي في الولايات المتحدة أيضا، إذن فهوية علم المكتبات والمعلومات محددة ومعروفة في البلدان الغربية. والمؤسف أن مثل تلك البرامج المدرجة ضمن مناهج مقررات علم المكتبات والمعلومات في المدارس والكليات المذكورة أعلاه ما تزال تدرس في غير موضعها في البلدان العربية بحجة أنها تتبع لكليات وأقسام الحاسوب تارة أو كليات وأقسام تقانة المعلومات تارة أخرى. ويحتاج الجانب الأكاديمي عادة لجوانب فلسفية ونظرية لتعزيز توجهاته الفكرية وهو ما سيتناوله الجزء التالي من البحث.

النماذج المعرفية في علم المكتبات والمعلومات

يتعامل علم المكتبات والمعلومات مع نماذج مختلفة تعتبر مكوناً جوهريا في العلوم المجاورة كعلم النفس مثلا والذي يتقاطع معه في المنظور الامبريقي empirical الذي يقسمه إلى قسمين يقعان بين ما يسمى "المثير الخارجي" external stimuli و"المعالجة الداخلية المقترحة" والموجودة بشكل أساسي في مفهوم فرويد Freud للاوعي حيث يشكل "المثير" مقدمات للأنا وتصرفاتها. وتوجد الناحية الامبريقية من ذلك المفهوم في قدرة علم المكتبات والمعلومات على إعداد وتجهيز المعلومات والمعرفة في إطار منظومة تهيئ المستفيد الذي يتعرض للمثير الخارجي فتنشأ لديه أعراض الحاجة الماسة، أو بمعنى آخر الرغبة المستفزة إذا جاز التعبير، للاستجابة لذلك المثير. وهنا تتجلى ضرورة صياغة نموذج أو قانون يحكم العلاقة بين النموذج المعرفي النفسومعلوماتي الافتراضي وبين النموذج الامبريقي الواقعي لتأطير نظرية الحاجة إلى المعلومات. فحالة اللاوعي عند فرويد يقابلها النموذج الهرمي "المعلومات-المعرفة-الحكمة" المعد

سلفاً باعتباره أمثل الأساليب لتلبية رغبات الاستثارة التي يتعرض لها المستفيد اللاواعي أو الباحث عن الحقيقة مهما كان نوعها نسبية كانت أم مطلقة. وعلى هذا الأساس يبدو أنه لا يوجد اتفاق بين مفكري علم المكتبات والمعلومات حول أهمية تحديد قياس لسقف نموذج الحاجة إلى المعلومات ومتطلبات الاستجابة لها. بمعنى آخر، أن المعلومات هي حالة من التدفق والانسياب المستدام ولذلك لم يناقش هؤلاء المفكرين حجم التشبع من المعلومات الذي ينبغي أن يلبي حاجة المستفيد الذي تعرض لمثير خارجي. كما أن تلبية الحاجة المستمرة للمستفيدين من المعلومات لا حدود لها ولا طاقة للمستفيد نفسه بها ولذلك أحيلت المسألة برمتها إلى سعة الاستيعاب النسبية لدى المستفيدين كافة، فالمعرفة درجات، واليقين مراتب عند أرسطو (النشار ١٩٩٥م). وسيتم في الجزء التالي الحكم على نظريات علم المكتبات والمعلومات في ضوء ثلاثة مفاهيم أساسية هي النموذج paradigm، وهو عبارة عن بنية فكرية تجريبية تستخدم كنقطة انطلاق لبناء النظرية؛ النظرية theory، وهي نظام من الفروض، المبادئ المقبولة، والقواعد الإجرائية الموضوعة للتحليل، والتنبؤ أو تفسير طبيعة أو سلوك ظاهرة معينة. وترتقي النظرية لرتبة التعميم أي تصل إلى رتبة ما وراء النظرية؛ وما وراء النظرية metatheory، وهي نظرية تهتم بدراسة، وتحليل أو وصف النظرية نفسها (Fisher, Erdelez, & McKechnie, 2006).

نظريات علم المكتبات والمعلومات

يرى فولر Fuller أن سر تفرد علم المكتبات والمعلومات يكمن في تركيزه على التعامل بـ"المعرفة"، وأنه المجال الوحيد الذي يستطيع منظروه الإدعاء بتكريس أفكارهم في معالجة المعرفة. وهذا الحكم، طبقاً لفولر، يستمد جذوره من الابستومولوجيا أو نظرية المعرفة عند أرسطو (Fuller 2008). ويتفق معظم مفكرو وعلماء المكتبات والمعلومات على أن دور الفلسفة والتنظير في هذا المجال ما يزال غير فعالا ومؤثراً كما هو الحال في المجالات الإنسانية المجاورة خاصة علم الاجتماع. ويعود السبب في ذلك، عند معظم الآراء، إلى أن حقل تقديم خدمات المعلومات الذي يعمل فيه اختصاصيي المكتبات والمعلومات هو مجال امبريقي، معرفي وتطبيقي. فهؤلاء الاختصاصيون يمارسون النظرية عملاً ولا يأبهون كثيراً للجانب الفلسفي النظري. ولذلك فهم بهذا الفهم يتبعون المبدأ البراجماتي حسب وجهة نظر بتلر Butler (Butler 1933). وهناك ندرة في إضافة نظريات للإدارة management في هذا المجال مما أغرى بعض الباحثين إلى التفكير في استيراد نظريات علم الاجتماع لإعداد دراساتهم ومن هؤلاء ألفريدا شاتمان Elfreda Chatman، كارل كوهولتاو Carol Kuhlthau، مايكل هاريس Michale Harris، وتي. دي. ويلسون T.D. Wilson. وبتلك النظريات والمناهج المستوردة، يعتقد جرير Greer، جروفة Grover، وفولر Fowler أن اختصاصيي المعلومات أصبحوا يتمتعون بقدرات ومهارات فائقة في استيعاب

متطلبات المجتمع الحديث وبالتالي استيفاء احتياجاتهم من المعلومات بالصورة المطلوبة والفعالة (Greer, Grover & Fowler 2007). وقد أحصى الباحث عدد ٢٧ نظرية تخص مجال المكتبات والمعلومات وحده للتنظير في اتجاهات السلوك المعلوماتي وردت في كتاب "نظريات السلوك المعلوماتي" من إعداد فيشر Fisher، إردليز Erdelez، ومكيشني McKechnie ونشرت الطبعة الثانية منه عام ٢٠٠٦م عن سلسلة الجمعية الأمريكية لعلم وتكنولوجيا المعلومات. إن تقييم ذلك العدد من النظريات يظهر أن بعض منها ما يزال في مرحلة النموذج والبعض الآخر تعدى طور النظرية و لم تصل إحداها إلى مرتبة ما وراء النظرية بعد.

وما يزال بعض النقاد ينادون بضرورة تحديد الإطار الفكري لعلم المعلومات لتمييزه عن المجالات الأخرى، ولكن هذه النظرة ربما تغفل أن علم المكتبات والمعلومات هو علم مركب وهذه ميزة إضافية تمكنه من التعامل مع العلوم كافة عن طريق الاقتباس المتبادل من نظرياتهما معاً (Klempner 2007). ويتضح ذلك أكثر من خلال فهم نظرية التحليل الوجهي التالية.

نظرية التحليل الوجهي

هي من أهم نظريات علم المكتبات والمعلومات التي وضعت من قبل رائد علم المكتبات الهندي رانجاناثان فيما يعرف بمفهوم التحليل الوجهي facet analysis. وقد وضعت بغرض تصنيف المعرفة عام ١٩٣٠م وتستمد مبادئها من أعمال أرسطو في المنطق المسماة بالـ"أورقانون" Organon فقد حاول أرسطو حصر الكائنات عامة في عشرة مجموعات في نسق شبيه بنظم التحليل والتصنيف الموضوعي في المكتبات المستخدمة في تنظيم المعرفة على أسس منطقية على الأرفف. فقد صنف أرسطو الكائنات الحية إلى مجموعتين هما النباتات والحيوانات، ثم قسم الحيوانات إلى قسمين أيضاً وهكذا وهو على هذا الأساس أول من وضع قواعد التصنيف الهرمي في علم الحيوان. واستمد نظام ديوي العشري تسلسله الهرمي المكون من ١١٠،٠٠٠ نقطة التقاء عشرية لرؤوس موضوعات العلوم من فكرة أرسطو (Tunkelang ٢٠٠٩).

ويعتقد بعض النقاد الغربيين أن هذه النظرية اعتمدت على مفاهيم التصنيف والتكشيف الوجهي التي وضعها كل من هنري بليس Henri Bliss، بول اوتليه Paul Otlet في حقل التصنيف وكايسر Kaiser في حقل التكشيف (Chan, Richmond & Svenouius 1985). ويعتقد أن أوتليه وضع نظام التصنيف العشري العالمي ليخالف به مبادئ الهيمنة الأمريكية على خارطة المعرفة في أوروبا والمتمثلة في انتشار استخدام نظام تصنيف ديوي العشري (Uyttenhove & Peteghem 2008) . علماً أن فلسفة تحليل وتصنيف العلوم في المكتبات تعود بجذورها إلى مكتبة الإسكندرية التي أنشأها بطليموس سوتر Ptolemy Soter في مطلع القرن الثالث قبل الميلادي في مصر (LaMontagne 1961).

إن فلسفة التصنيف تشمل مفاهيم امبريقية مختلفة ابتداءً من استخدام اللغات الطبيعية natural languages ودالاتها في تحليل وتحديد المضامين الجوهرية للمادة العلمية المراد تصنيفها، ضبطها ووضعها في هيئة رؤوس موضوعات أو كلمات مفتاحية، ومروراً بعمليات تشفير تلك المضامين واستبدالها بأرقام رياضية mathematical notations تعرف باللغة الاصطناعية artificial language الهدف منها تحقيق التنظيم المطلوب للمعرفة في المجالات كافة. ويرتبط التحليل الوجهي في التصنيف والتكشيف باستخدام معاملات المنطق البوليانى Boolean logic operators عند البحث في قواعد البيانات الببليوجرافية. ويعد المنطق البولياني، عند بوول Boole، مبني على أصول التحليل الرياضي الذي يستخدم الرموز الحسابية الخاصة، المعاملات operators، والقوانين الرياضية. وبتقييم هذه النظرية يظهر أنها تجاوزت طور النظرية إلى مرتبة ما وراء النظرية منذ نهاية عقد التسعينيات من القرن العشرين.

نظرية الدلالة المعلوماتية

تعد من أحدث مدارس الفكر الاسكندنافي في علم المكتبات والمعلومات. وقد تطورت نظرية الدلالة المعلوماتية semantic information من خلال انتهاج الأسلوب المعرفي cognitive المتبع في تحليل طرق وأساليب استرجاع المعلومات. وضعها الفيلسوف ورائد علم المكتبات والمعلومات الدنماركي فريد دريتسك الذي يعمل بالمدرسة الملكية لعلم المكتبات والمعلومات بكوبنهاجن عام ١٩٨١م في كتابه "تدفق المعلومات والمعرفة" وتعتمد في إطارها الفكري على نظرية المعلومات لشانون (Bonnevie 2001).

وهي تفترض استخدام القياس الرياضي لبناء شبكة دلالية اونطولوجية لمحتوى الكتب الرقمية معتمدة على مبحث البنائية structuralism في علم اللغة التطبيقي. وتعمل تلك الشبكة من خلال تصميم وصلات links وعقد nodes داخل النص الفائق hypertext شبيهه بنظم إحالة "أنظر" و"أنظر أيضاً" في عملية التكشيف الموضوعي. والهدف منها هو وضع إستراتيجية لترتيب الكتب الرقمية المتاحة على الويب اعتماداً على اهتمامات المستفيدين عند استرجاع المعلومات بواسطة البحث في محركات البحث (Rinaldi 2009). وتجري محاولات حالية من قبل كونسورتيم الويب (W3)[1] للاستفادة من طرق وأساليب نظرية الدلالة المعلوماتية لهيكلة المستندات المصممة على بيئة الشبكة العالمية في تصميم الويب الدلالي semantic web. وتقيم هذه النظرية في المرحلة الثانية من مراحل نمو النظرية وهي بحاجة لمزيد من التطور لتصل إلى مرحلة ما وراء النظرية. وهناك نظرية أخرى ظهرت في بلاد المشرق تسهم أيضاً في الإضافة إلى علم المعلومات والمكتبات يتم التطرق لها في الجزء التالي.

نظرية الذاكرة الخارجية

هذه ربما تكون أول محاولة للمجتمع العربي لوضع فلسفة ونظرية في مجال علم المكتبات

والمعلومات ورائدها المصري الدكتور سعد محمد الهجرسي في كتابه "المكتبات والمعلومات: أسس علمية حديثة ومدخل منهجي عربي" الصادر عن دار المريخ عام ١٩٩١م. وهناك كتاب لمؤلف آخر لا يقل في الأهمية عن الأول باعتباره أول كتاب باللغة العربية في الفلسفة والتنظير في علم المكتبات والمعلومات تحت عنوان "الفلسفة والتنظير في علم المعلومات و المكتبات" للدكتور أحمد بدر الصادر عن دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع عام ٢٠٠٢م. وتعتبر فترة ظهور هذه النظرية فترة متأخرة جداً لبروز الدور العربي في التنظير لهذا المجال في غضون العقد الأخير من القرن الماضي.

فقد أهتم مجال المكتبات والمعلومات بعمليات جمع، معالجة واختزان وسائط تدوين المعلومات منذ قديم الزمان ابتداءً من تسجيل المعلومات في جدران الكهوف، الألواح الطينية، ورق البردي مرورا باستخدام الورق بعد اختراع جوتنبيرج لماكينة الطباعة ووصولاً إلى مرحلة تداول الوسائط الالكترونية والرقمية الحديثة عبر الانترنت. وينبني جوهر الذاكرة الخارجية على عمليات البحث واسترجاع المعلومات وهي ترتبط بمبحث أرسطو Aristotle في الذاكرة والتذكر في المنطق وعلم النفس.

ويمكن تناول نظرية الذاكرة من خلال تفسير مضامين ما وراء النظرية في الابستومولوجيا. فقد ارتبط البحث في نظرية المعرفة بنظريات الوجودية existentialism، إذ لا يمكن الفصل حتى في نظرية المعرفة نفسها بين البحث في وسائل المعرفة، طبيعتها وموضوعها فالمفكر الذي ارتضى الحواس وحدها مصدرا للمعرفة لا يمكن أن يسلم بوجود كائنات عقلية صرفة وإلا وقع في تناقض أساسه التعارض بين ارتضاء الحواس كوسيلة للمعرفة، والتسليم بوجود تلك الكائنات العقلية التي لا سند لوجودها في الواقع المحسوس. وهناك حاجة للتمييز بين المحسوس tangible وما هو خارج دائرة المحسوس intangible كما أسلفنا من قبل، أي بينما يدخل في مجال التجربة وما يخرج عنها.

فنظرية المعرفة تبحث في التمييز بين المعلومات الذاتية والمعلومات الموضوعية، فكل ما يتصل بالذات المدركة يرجع إلى علم النفس وكل ما يتعلق بالموضوع المدرك يرجع فيه إلى العلوم الطبيعية. فالمعلومات المطبوعة (ظاهرة معرفة حسية) أما المعلومات الرقمية فهي بمثابة (ظاهرة معرفة ميتافيزيقية) هي وجود يتعدى كل ما تعرفه التجربة العادية، وهي ترتبط بين ذلك العقل وذلك الوجود على حين أن العدم يقوم على النظر والسمع وعلى اللغة، وهذا تضاد بين فكر العقل وإدراك الحس عند بارمنيدس Parmenides.

ويعرف أرسطو الذاكرة في مبحثه في الابستومولوجيا قائلاً "أنها ليست إدراكا حسيا وليست تصوراً (أي ليست خيالاً)، ولكنها من تأثير أحدهما بشرط انقضاء مدة من الزمن. وكما هو ملاحظ ليس هناك شيئاً ندعوه ذاكرة مما يحدث في الوقت الحاضر، لان الحاضر هو موضوع للإدراك الحسي فقط، أما المستقبل فهو موضوع للتوقع، أما موضوع الذاكرة فهو الماضي، فكل ذاكرة إذن تتعلق بزمن انقضى." والذاكرة قد تؤدي وظائفها، عند أرسطو، تلقاءً وقد تستحثها

الإرادة ويسمى النوع الثاني تذكراً، وهو خاص بالإنسان لأنه يستلزم التفكير، وتستعين الإرادة فيه بالحركات النفسية التي صاحبت الإحساس، وبالحركات البدنية أيضا (الذهنية) فان هذه وتلك مسلسلة يتبع لاحقها سابقها طبقاً لناموس معين. فالتذكر يتوقف على تداعي أو ترابط الصور والحركات.

ففي فضل الذاكرة في التعلم، تدرج أرسطو في "الميتافيزيقيا" Metaphysics في تصنيف المعرفة الإنسانية بدءً من المعرفة الحسية مرتقياً إلى الخبرة والعلم، وميز من خلال ذلك بين الإنسان والحيوان. فالخبرة لدى الإنسان تتفوق كثيرا من حيث أنها تشكل لديه الفن، والفن مرتبة في المعرفة تقترب من مرتبة العلم، فكثرة الخبرات تكسب المهارة (الفن)، وهي تؤدي في النهاية إلى مرتبة العلم والفهم، إذ يستطيع العالم أن يفهم الأمر بمجرد مروره بخبرة واحدة بسيطة، وهذه القدرة على الاستيعاب وحدس الأمور أساسها الذاكرة والخبرة. فالفن والعلم يأتيان للإنسان من خلال الخبرة.

إن نظرة المستفيدين للمكتبة أو مركز المعلومات هي أنها مثيرة للتذكر، ولذلك توصف عند هيجل بـ"الكون الثابت"، والمقصود من الكون الثابت هنا هو "المعرفة." ومن هنا فان مفهوم الذاكرة عند الهجرسي نجده قد تأثر بأفكار أرسطو وهيجل غير أنها، بموجب الأركان الأساسية للنظرية المذكورة في مقدمة هذا البحث ألا وهي البرهان، المنطق والابستومولوجيا، فهي في حاجة إلى البرهان والقياس. وربما يجدر بناء استخدام المنهج البيليومتري أو نظيريه منهجي السينتوميتري والإنفورميتري في حالات الذاكرة المادية أو المنهج الويبومتري في حالات قياس مصادر الانترنت لتعضيد البرهان لأنه يقترب في أسلوبه من المبادئ الامبريقية لجون لوك John Locke. وتعتبر هذه النظرية في مرتبة بين النموذج والنظرية وهي في حاجة إلى تطوير لتصل لرتبة النظرية الصرفة. ومن أهم المدارس الغربية التي أثرت على نظريات علم المكتبات والمعلومات وتبني منهج النظرية النقدية هي مدرسة فرانكفورت كما سنرى لاحقاً.

مبادئ مدرسة فرانكفورت

ارتبط ظهور النظرية النقدية بتأسيس معهد البحوث الاجتماعية عام ١٩٢٣م في جامعة فرانكفورت في ألمانيا. فقد كان المعهد موطناً لما عرف بمدرسة فرانكفورت للفكر أو النقد الاجتماعي. وغدا المعهد، تحت قيادة ماكس هورخيمر Max Horkheimer في عقود الثلاثينيات، بؤرة للنقد الراديكالي radicalism لكل من النسيج الاجتماعي (بما فيه الاقتصاد والسياسة) والنظريات الاجتماعية التي كانت ترمي إلى تفسير الظواهر الاجتماعية. ويعتقد أن النظرية النقدية برزت إلى الوجود كمشروع يهدف لإلقاء الضوء على كيفية تفسير دور النظريات التقليدية للمجتمع الحديث، مفاهيم علم الاجتماع وأوجه نظر دراسة المجتمعات، وممارسة إجراء البحوث من خلال الافتراضات ذات الصلة بالعلاقة بين علم الاجتماع والمجتمع وبين منطق علم الاجتماع

والسياق الاجتماعي-التاريخي socio-historical المتين. ومنذ مطلع عقد الثلاثينيات من القرن العشرين فقد أصبحت النظرية النقدية تذكر بأن الأشكال الاقتصادية، السياسية، الثقافية، والأيديولوجية للسياق الاجتماعي-التاريخي لها تأثير مباشر على الشكل، المضمون، الممارسة والتكيف الطبيعي مع أوضاع الحياة الاجتماعية والعلوم الاجتماعية. ومن بين أوائل رواد النظرية النقدية بمدرسة فرانكفورت ثيودور وايزنجرينـد-أدورنو Theodor Wiesengrund-Adorno، والتر بنجامين Walter Benjamin، إريك فروم Eric Fromm، ماكس هورخيمر، هيربيرت ماركوس Herbert Marcuse، ويلهيلم ريخ Wilhelm Reich، ومؤخراً يورقين هابرماس Jurgen Habermas. فبالرغم من أن لكل من هؤلاء العلماء آفاق واسعة من الأجندة الفكرية المطروحة، إلا أنهم تماهوا تحت راية مذهب الأفكار والتحليلات الماركسية الحديثة neo-Marxist والتي تبحث في قضايا مثل الجذور الاجتماعية-التاريخية للرأسمالية capitalism وطبيعة العمل والعمال في النظام الرأسمالي، المادية التاريخية، خصائص ووظائف الدولة الحديثة، أنشطة الهيمنة الثقافية، الايدولوجيا وإقصاء الآخر، الرؤى البديلة للوجود، طبيعة الحقيقة، والأنشطة النفسواجتماعية pyschosocial في الحياة اليومية. وبالإضافة إلى ذلك، فقد أسهم أعضاء مدرسة فرانكفورت في وضع لبنات النظرية الاجتماعية المعاصرة كالفلسفة اليقينية المنطقية logical positivism، البراجماتية pragmatism، والطبيعة الجدلية dialectics.

ولهذا السبب أصبحت النظرية النقدية منهجاً مفضلا لدى علماء المكتبات والمعلومات المحدثين أمثال فلوريا حي. ليكي Gloria J. Leckie، ليسا إم. جيفين Lisa Given M.، وجون بوشمان John Buschman في كتابهم "النظرية النقدية لعلم المكتبات والمعلومات: استكشاف الاتجاهات الاجتماعية ضمن المجال" ونشرته مؤسسة المكتبات اللامحدودة في كاليفورنيا (Leckie, Lisa, Buschman 2010).

وهناك بعض المفكرين الفرنسيين الذين يحسبون على التيار الفكري لمدرسة فرانكفورت ولكنهم يرفضون أو بالأحرى يقاومون أسس ماركس وهيجيل التي تقوم عليها مبادئ مدرسة فرانكفورت. وهؤلاء هم منظري الفكر البنائي structuralists وما بعد البنائية poststructuralists وهم أمثال عالم الاجتماع بيير بورديو Pierre Bourdieu، الفيلسوف جاك دريدا Jacques Derrida، الفيلسوف ميشيل فوكو Michel Foucault، عالم التحليل النفسي جاك لاكان Jacques Lacan، وصاحب نظرية ما بعد الحداثة postmodernism جين-فرانسوا ليوتارد Jean-Francois Lyotard. فقد هاجم هؤلاء مجموعة من المسائل والمتناقضات ابتداءً من سيطرة النظم الاقتصادية-الاجتماعية المتعددة وانتهاءً بالأشكال غير المدروسة للهيمنة والتنظيم الاجتماعي، قوى التهميش، وقيود المناهج وأصول التدريس القائمة على معيار الإنتاج الفكري (Kritzman 2005).

ومن ثَم يمكن الاستفادة من أفكار بورديو في تحليل إعادة الإنتاج الثقافي analysis of cultural reproduction التي قدمها في مقاله "أشكال الرأسمالية" في مجالات خدمات المستفيدين في المكتبات ومراكز المعلومات باعتبارهما بؤراً للإنتاج الثقافي. ويمكن الاعتماد على أفكاره بغرض إجراء التحليل النقدي للعلاقة بين تساؤلات المستفيدين والتحليل الفكري الواعي الذي يجريه اختصاصي الخدمة المرجعية لمضاهاة تلك التساؤلات لتقديم الإجابة الأنسب بالمعلومة الأنسب للمستفيد الأنسب. والقاسم المشترك بين الطرفين هو أن رؤية بورديو تنطلق من اعتماده على التجربة المعايشة أكثر من اعتمادها على التأمل والتبصر الذهني. فهو، أي بورديو، يحاول التوفيق بين الفينومونولوجيا phenomenology، التي تؤكد وجودها في سبر أغوار المقاصد بصرف النظر عن جذورها الاجتماعية، والبنائية structuralism التي تقزم، حسب رؤيته، ذات الفرد كلية. ومن هذا المنطلق، فإن معايير الوعي المعلوماتي information literacy التي يقدمها علم المعلومات، تسعى إلى إزالة القصور في تلك الرؤية وبالتالي فهي تسهم في إعادة الثقة في قدرة المستفيدين على الاعتداد بأنفسهم في تحديد وقياس حجم المعلومات المراد استهلاكها من دون اللجوء المتكرر إلى اختصاصي المراجع المذكور آنفا (Bourdieu 1980). وقد تأثرت نماذج علم المكتبات والمعلومات بفكر ما وراء نظريات مدرسة فرانكفورت رغم جذورها التي ترتبط بعلم الاقتصاد كما سبق الإشارة إلى ذلك. وفي المرحلة التالية سنناقش إلى أي مدى أثر علم المعلومات على العلوم الاجتماعية مما أفرز نظريات تؤسس لأهمية دور المعلومات في بناء المجتمع الحديث.

نظريات مجتمع المعلومات

استطاعت التغيرات الحديثة التي نتجت بفعل اندماج تكنولوجيا المعلومات والاتصالات التي تمخض عنها ميلاد شبكة الانترنت وتطبيقات الويب من إحداث نقلة مذهلة ليس فقط في طرق وأساليب أداء مؤسسات المعلومات المختلفة بل في ابتكار ثورة فكرية لم يشهد العالم لها مثيلاً من قبل. وقد نادى العديد من المفكرين والباحثين للإفادة من تأثير نظريات مجتمع المعلومات التي هي في الأساس نابعة، في مجملها، من انتيليجينسيا intelligentsia أو مفكري مدرسة فرانكفورت المحدثين أمثال هابرماس وجيدينز وغيرهم مثل فرانك ويبستر Frank Webster في بناء وتمتين نظريات علم المعلومات والمكتبات باعتبار أن أفكارهم مثمرة وبناءة وتضيف جديداً إلى هذا المجال.

وقد كان لبول أوتليه عصب السبق في تصور طريقة عمل الشبكة العالمية العنكبوتية وكان صاحب أول فكرة لمجتمع المعلومات الذي نعيشه حالياً (Heuvel 2008). هذا ويضع أليستر داف Alistair Duff مؤلف كتاب "دراسات في مجتمع المعلومات" مصطلح "مجتمع المعلومات" ضمن أدبيات علم المعلومات. وقد حاول داف وضع فرضيات لتثبيت دعائم نظريات مجتمع المعلومات تقوم على ظاهرتين هما انسياب المعلومات

information flow وانفجار المعلومات information explosion، وهما ظاهرتان حاول كل من اوتليه ولافونتين كبح جماحهما بواسطة طرح فكرة الضبط الببليوجرافي العالمي. وقد أجرى داف دراسة استغرقت مدة ١٤ عاماً لتحديد أكثر الأقسام الأكاديمية إسهاما في الإضافة إلى أدبيات مجتمع المعلومات فوجد أن أقسام علم المكتبات والمعلومات بالجامعات الأمريكية قد احتلت عصب السبق والريادة بنسبة ١٩,١% من جملة ١١٥ مقالة علمية محكمة، تليها دراسات الاتصال بنسبة ١٢,٢%، تليها علوم الحاسوب بنسبة ٨,٧%، ثم علم الاجتماع بنسبة ٨,٧% (Duff 2000).

وتطرح نظريات مجتمع المعلومات قضايا ومفاهيم ترتكز على ضرورة إعادة تشكيل المجتمع الإنساني الحديث بنمط مغاير لما كان سائداً في عهود الإقطاع والرق على سبيل المثال، مع تطوير قدرات مجتمعات ما بعد عصر الصناعة postindustrial society أو مجتمع ما بعد الحداثة postmodern society، المعروف بمجتمع المعلومات information society كما ورد في فلسفة عالم الاجتماع الأمريكي دانيال بيل Daniel Bell صاحب كتاب "التناقضات الثقافية للرأسمالية." وذلك من أجل استيعاب وتطويع الاختراعات الحديثة في مجال تكنولوجيا المعلومات لتيسير أنشطة الاتصال بين أفراد المجتمع العالمي كافة لتحقيق الرفاه، مبادئ الإنسانية، تحرير الاقتصاد والتجارة، الديمقراطية وحقوق الإنسان. فتلك القضايا والمفاهيم تكاد تسعى إلى تطبيق فكرة أفلاطون Plato في المدينة الفاضلة The Utopia أو عالم المثل لبينثام Bentham. ويعتقد مانويل كاستل Manuel Castells أن هذا المجتمع الجديد يتسم بقدرته على التواصل الاجتماعي الشبكي networked society عن بعد دون الحاجة إلى السفر وقطع المسافات البعيدة لإجراء الاتصال الاجتماعي أو المتعلق بالعمل والوظائف وإدارة الأنشطة التجارية (Webster 2006).

ويمكن تصور حدوث التغيرات التي أفرزتها تكنولوجيا المعلومات من خلال قراءة نبوءات مفكر الدراسات المستقبلية ألفين توفلر Alvin Toffler الذي تنبأ بحدوث ثلاث موجات تكنولوجية عاتية لا يمكن صدها أو الوقوف في وجهها. فالموجات الثلاث، من وجهة نظره، تمثلت في الثورة الزراعية agricultural revolution، الثورة الصناعية industrial revolution وثورة المعلومات information revolution. والموجة الأخيرة لا غنى لأحد عنها، أي لن ينجو أحداً من الغوص في تفاصيلها أو التورط في استخدام أجهزتها، فكثير من الأميين صاروا يستخدمون الهاتف الجوال بحكم الواقع de facto لأنه لا فكاك من قوى إغوائه بسبب منافعه المتاحة للعامة (Toffler 1980).

بيد أن التنبؤ بظهور مجتمع المعلومات كانت فكرة قديمة طرحت جدلياتها في اليابان منذ عقود الستينيات حيث أجريت دراسات كان الهدف منها قياس نمو ما عرف بالـ"جوهو شاكاي" أي "مجتمع المعلومات" (Duff et al. 1996). وما يعنينا في هذا الشأن، أن مفكري مجتمع المعلومات، الذين هم في الأصل منظري الفكر الاقتصادي،

أمثال روبرت ريخ Robert Reich، بيتر دراكر Peter Drucker ومانويل كاستل، افترضوا أن الوضع الاقتصادي الراهن شكل مجتمعاً جديداً من النخب العاملة أهم سماته أنه يعمل في وظائف معالجة المعلومات. وتختلف مسميات الوظائف الجديدة من "محللي نظم" إلى "خبراء المعرفة" إلى "موظفي المعلومات" وهي مسميات تشمل الوظائف الجديدة التي فرضها الواقع الافتراضي على العاملين في حقل المكتبات والمعلومات مثل "محللو النظم المكتبية"، "مصممو مواقع مكتبات"، "محللو نظم إستخبارية"[1]، وغيرها الكثير من الوظائف التي يتطلب الأمر معها تغيير مناهج وأساليب تدريس مجال المكتبات والمعلومات لتتواكب مع متطلبات العصر وسوق العمل العالمي.

وهناك تأثير قوي على نماذج علم المكتبات والمعلومات المستوردة مفرداته من أدبيات مجتمع المعلومات وعليها صبغة الأيدلوجيات الرأسمالية مثل رأس المال المعلوماتي information capitalism أو المعرفي knowledge capitalism أو اقتصاد المعرفة knowledge economy، اقتصاد المعلومات information economy، وحلها استعارة لمفاهيم الماركسية في التعامل مع المعلومات والمعرفة كسلعة commodity تخضع لسياسات العرض والطلب في السوق عند مفهوم هيربرت شيلر Herbert Schiller، مكلاب Machlup وبورات Porat. فقد أضحت المعلومات المختزنة في قواعد البيانات تؤجر مقابل عقود بمبالغ طائلة بحيث أصبحت المكتبة أو مركز المعلومات ليس المالك الأصلي كما هو الحال عند شراء المراجع المطبوعة وإنما عميل مؤقت بموجب العقد القانوني. تلك المصطلحات ظهرت في عقد السبعينيات لتعبر عن التحول الجذري الذي أدى إلى التغير المجتمعي الذي كان قائما على اقتصاد الصناعة industry-based economy فأصبح يقوم الآن على اقتصاد المعلومات information-based economy أو على اقتصاد المعرفة knowledge-based economy. ومن خلال ذلك تحولت الرؤية إلى المستفيدين من المعلومات فصار يطلق عليهم أحيانا "مستهلكي المعلومات" information consumers أما مؤسسات المعلومات فقد اتخذت أشكال "بنوك المعلومات". كما أن التنظير في شؤون التحولات التي يمر بها المجتمع يمكن تقسيمها إلى معسكرين. فالمعسكر الأول يضم هؤلاء الذين استلهموا تجاربهم من منظري علماء الاجتماع أمثال دانيال بيل وأعماله التي صدرت بين عقدي ١٩٧٠ و١٩٨٠م التي تمحورت حول مجتمع ما بعد الصناعة postindustrial society. وقد تأسست أفكاره حول الفوائد الكبرى التي تتيحها تكنولوجيا المعلومات والاتصالات للمجتمع. وفي خضم هذين العالمين المتوازيين (المجتمع الصناعي والمجتمع الرأسمالي) فيما يعرف بفرضية نهاية الايدولوجيا "end of ideology" أصبح نموذج ما بعد الحداثة يمثل أحد أركان مشروع الليبراليين الجدد neoliberalists. أما المعسكر الآخر، الذي يتزعمه المفكر والمنظر الاقتصادي اقليتا Aglietta الذي يرى أن الظروف المعاصرة ستستمر على

المدى الطويل وهو ما يعني أن إنتاج وتوزيع تكنولوجيا المعلومات والاتصالات مرتبط بالعلاقات بين الطبقات الاجتماعية التي تجعل من النظام الرأسمالي نظاماً متناقضا وغير مستقراً للتكامل الاجتماعي والاقتصادي (Stevenson 2010).

علماً أن عدداً لا بأس به من المفكرين انتقدوا سياسيات مجتمع المعلومات باعتبارها تكرس للطبقية المعلوماتية كرد فعل للهيمنة الرأسمالية على منتجات المعلومات واحتكار سوق برمجيات الحاسوب مما يزيد من قسوة ظاهرة الفارق الرقمي digital divide. ويعتقد آخرون أنها البوابة التي ينفذ منها الرأسماليون الجدد neo-capitalists لفرض أفكار ومعتقدات العولمة (Fuchs 2008). وقد ميز فولر بين وظائف المعرفة في مجال المكتبات والمعلومات وبين وظائفها في مجال الاقتصاد. فمن وجهة نظر المجال الأول، يمضي فولر، يعتبر فهم علماء الاقتصاد لمضمون المعرفة هامشي لأنهم يتعاملون معها ببساطة من وراء الأرقام فقط (Fuller 2008, op. cit.).

ويعتبر البروفيسور جيديتز من أكثر علماء الاجتماع شهرة فقد ألف أكثر من ٤٠ كتاباً ترجمت إلى الكثير من اللغات العالمية وشغل منصب مدير مدرسة لندن للاقتصاد حتى عام ٢٠٠٣م. ومن أهم نظرياته مفهوم "الطريق الثالث" في الفكر السياسي. ويتناول نظرية العولمة من منظور عواقبها الوخيمة على الثقافة والهوية في الغرب. وهو يركز في كتابه "الركض خلف السراب" على مخاطر العولمة فيما يعرف بنزع ثوب الأعراف والتقاليد detraditionalisation التي تنتهجها مؤسسات كالدولة، الأسرة، والعقيدة، فهي مؤسسات، حسب وجهة نظره، لم تعد قادرة على تحقيق قيم الأمن والاستقرار للمجتمع الإنساني (Giddens 2000).

ويلاحظ أن تأثير جيديتز ممتد في عمق نظريات علم المكتبات والمعلومات وهناك عدداً لا بأس به من الباحثين الذين روضوا أفكاره لأغراض دراسة السياق الاجتماعي social context في الحاجة إلى المعلومات information seeking واستخدامها في الميادين الاجتماعية وفي حقل المنظمات في المدى بين منظمات القطاعين الخاص والعام وبين المكتبات العامة والرقمية. فهو، أي جيديتز، يتبنى قضايا مختلفة للجانب الإنساني من استخدام نظم المعلومات وتكنولوجيا إدارة المعرفة مما يساعد في صهر أفراد المجتمع الإنساني في قالب عالمي. ومن الواضح أن هناك تنامي في اقتباس نظريته في البنيوية structuration في تشكيل الواقع الاجتماعي وما يرتبط بها من مفاهيم للإجابة على أسئلة مثيرة والحصول على نتائج قيمة من قبل الباحثين منذ عام ٢٠٠٠م، حسب ملاحظة كرونين (٢٠٠٨). ومن بين نظريات مجتمع المعلومات الأكثر جدلاً رأينا استعراض نظرية المجال العام لعلاقتها الوثيقة بنماذج ونظريات علم المكتبات والمعلومات.

نظرية المجال العام

إن نظرية المجال العام public sphere هي إحدى نظريات مجتمع المعلومات والمنسوبة

للفيلسوف ورائد علم الاجتماع الألماني يورقين هابرماس والتي تفترض أن المعلومات هي جوهر العملية الديمقراطية وهي بالضرورة أداة فعالة في تحقيق التغيير المنشود، كما يحدث في نموذج الربيع العربي الجارية أحداثه حالياً، عبر المشاركة السياسية الواسعة للمجتمع في ظل حكم القانون، الديمقراطية والعدالة. وقد جاءت أداة مجتمع المعلومات الرئيسة وهي الانترنت لتؤكد تلك المبادئ لكونها تمثل مجالاً عاما مفتوحاً للجميع للتعبير عن أفكارهم ونشرها بحرية دون شرط أو قيد (Habermas 1989).

ويعد هاربرماس من المتأثرين بأفكار هيجل وماركس ويعتبره وايزنجريند-أدورنو ذو توجهات اشتراكية socialist في مدرسة فرانكفورت بينما يحسبه هورخيمر على التيار اليساري left-wing وهو من المعجبين بأفكار مارتن هيدجر Martin Heidegger (Wiggershaus 1995). وضع هاربرماس كتابه تحت عنوان "التحول البنيوي في المجال العام: بحث في طبقة المجتمع البرجوازي" لأول مرة عام ١٩٦٢م ثم صدرت طبعة حديثه منه عن معهد ماساتشوسيتس للتكنولوجيا عام ١٩٩١م (Habermas 1991). وهو مؤلف ثري بالأفكار، له سطوته ونفوذه على العديد من المجالات الأخرى. وتعرضت فكرته "حول المجال العام" لأوجه نقض مختلفة كما فتحت الباب على مصراعيه للجدل والنقاش البناء في موضوعات مثل الديمقراطية، المجتمع المدني، الحياة العامة، والتغيرات الاجتماعية التي حدثت في نهاية القرن العشرين. وتتلخص فلسفته في الدعوة باستيفاء المتطلبات الضرورية للديمقراطية في ضوء الصيغ المختلفة لدور السياسة في مجتمع ما بعد الصناعة البيروقراطي الذي تتحكم وسائل إعلامه ونخبه في المجال العام. ولتأصيل مفهوم المجال العام في أدبيات علم المكتبات والمعلومات فقد أشار ويبستر إلى أن البراجماتية المستخدمة في شبكات المكتبات العامة هي من أقرب الصيغ التي يمكن أن تحقق ذلك المفهوم في بريطانيا. والمقاربة المطروحة أن المجال العام يقوم على فكرة الاتصال، فالصحف على سبيل المثال، تعمل بالوكالة عن رأي الشعب في المجال العام. ولهذا السبب أجرى بوشمان Buschman في كتابه "تفكيك المجال العام: استدامة علم المكتبات في عصر الفلسفة الحديثة" الذي نشر عام ٢٠٠٣م مقاربة بين دور الإعلام، خاصة الصحف السيارة، وبين دور المكتبات العامة في تحقيق عملية الاتصال المعرفي والفكري في المجال العام. ولذلك سعى المؤلف إلى رفض أفكار هابرماس المتعلقة بالعولمة والرأسمالية التي تهتم بالمال والأعمال وتهمل الجوانب الإنسانية لمصلحة الطبقات الاجتماعية الثرية، أي البرجوازية، التي تتخذ من المجال العام مرتعاً لها. فالدعوة إلى تحرير السوق بموجب القيم الرأسمالية ستؤدي إلى تلاشي دور المكتبات العامة في تنمية المجتمع. فبموجب سياسة التحرير تلك، حسب بوشمان، أصبحت المستشفيات بلا مرضى، والجامعات بلا طلاب بل اصبح هؤلاء "عملاء" للمستثمرين الرأسماليين (Buschman 2003). ويمكن ملاحظة تغير الموضوعات التي ينتقيها الباحثون في مجال المكتبات والمعلومات في هذا الصدد إلى تبنى اتجاهات تحمل

قيم سياسات التحرير الاقتصادي مثل "تسويق خدمات المعلومات"، "تسويق خدمات المكتبات"، "العائد المادي من تقديم الخدمة المرجعية الأكاديمية"، "سياسات العرض والطلب للببليوجرافيا التجارية" وغيرها. وعموماً وبالرغم من ضراوة الهجمات التي تلقتها هذه النظرية إلا أنها فتحت آفاق جديدة أمام دمج الإطار الفكري لمجال المكتبات والمعلومات في ساحة التنظير، الفلسفة والاقتصاد الحديث. وتقيم جميع نظريات مجتمع المعلومات في مرتبة ما وراء النظرية لكثرة ما أسهمت في استثارة النقاش المثمر والإضافة إلى أدبيات المعرفة الإنسانية.

خاتمة

من خلال استعراض وتحليل نظريات علم المكتبات والمعلومات والنظريات المرتبطة بها، يبدو الأمر بحاجة لمزيد من البحوث والدراسات في مختلف موضوعاته بغرض استنباط واستنتاج مباحث نظرية وفلسفية جديدة تثري المجال وتنمي معارفه. ولم يكن الهدف من هذا البحث هو التغطية الشاملة للموضوع بقدر ما كان يهدف إلى التعريف بمنهج النظرية النقدية وإلقاء مزيد من الضوء على بعض النظريات التي لم تلق حظها من العرض والنقاش من قبل.

المراجع

- بدر، أحمد (٢٠٠٢). الفلسفة والتنظير في علم المكتبات والمعلومات. القاهرة: دار غريب.
- البشار، مصطفى (١٩٩٥). نظرية المعرفة عند أرسطو. ط٣. القاهرة: دار المعارف.
- الهجرسي، محمد سعد (١٩٩١). المكتبات والمعلومات: أسس علمية حديثة ومدخل منهجي عربي. الرياض: دار المريخ.

References

- Abend, L (2012). 'Who Is Waging Cyberwar Against the Jihadi Networks?' Time World, Thursday, Apr., 05, 2012. Online <http://www.time.com/time/world/article/0,8599,2111293,00.html >
- Bonnevie, E. (2001). Dretske's semantic information theory and meta-theory in library and information science. Journal of Documentation, vol. 57, No. (4), pp. 519-534.
- Borko, H. (1968). Information science: what is it? American Documentation, vol. 19, No. (1), pp. 2-3.
- Bourdieu, P. (1980). 'The Forms of Capital'. In: J.G. Richardson (ed.), Handbook of Theory and Research for the Sociology of Education. New York: Libraries Unlimited Member of Greenwood Publishing Group.
- Buckland, M. (2008). 'On the cultural and intellectual context of European documentation in the early twentieth century'. In: European modernism and the information society: informing the present, understanding the past. Hampshire, Burlington: Ashgate Publishing Limited.
- Buschman, J. (2003). Dismantling the public sphere: situating and sustaining librarianship in the age of the new public philosophy. Westport, CT: Libraries Unlimited Member of Greenwood Publishing Group.

- Butler, P. (1933). An introduction to library science. Chicago: University of Chicago Press.
- Chan, L., Richmond, P. & Svenouius, E. (1985). Theory of subject analysis: a sourcebook. New York: Libraries Unlimited.
- Duff, Alistair (2000). Information Society Studies. New York: Routledge imprint of Taylor & Francis Group.
- _____ et al. (1996). 'A note on the origins of the information society', Journal of Information Science, vol. 22, pp.117-122.
- Fisher, K, Erdelez, S & McKechnie, L (2006). Theories of information behavior. New Jersey: The American Society for Information Science & Technology.
- Fuchs, Christian (2008). Internet and society: social theory in the Internet Age. New York: Routledge imprint of Taylor & Francis.
- Fuller, S. (2008). 'A tale of two narratives: Prolegomena to an alternative history of library and information science'. In: European modernism and the information society: informing the present, understanding the past. Hampshire, Burlington: Ashgate Publishing Limited.
- Giddens, A. (2000). Runway World. London: Routledge imprint of Taylor & Francis.
- Greer, Roger, Grover R., & Fowler (2007). Introduction to library and information professions. New York: Libraries Unlimited Member of Greenwood Publishing Group.
- Habermas, J. (1991). The inclusion of the other: Studies in Political Theory. Cambridge: Polity Press.
- _____ (1989). Structural transformation of the public sphere. Cambridge: Massachusetts Institute of Technology.
- Heuvel, C. (2008). 'Building society, constructing knowledge, weaving the web: Otlet's visualizations of a global information society and his concept of a universal civilization'. In: European modernism and the information society: informing the present, understanding the past. Hampshire, Burlington: Ashgate Publishing Limited.
- LaMontagne, L. (1961). American library classification: with special reference to the Library of Congress. Shoe String Press.
- Leckie, G., Lisa, G. & Buschman, J. (2010). Critical theory for library and information science: exploring the social from across the discipline. California: Libraries Unlimited an imprint of ABC-CLIO, LLC.
- Loehle, Craig (1996). Thinking strategically: power tools for personal and professional advancement. Cambridge: Cambridge University Press.
- Klempner, I. (2007). Information science unlimited? ...a position paper. American Documentation, vol. 20, No. (4), pp. 339-343.
- Kritzman, L. (ed.) (2005). The Columbia history of twentieth-century French thought. Columbia: Columbia University Press.
- Rayward, W.B. (1997). 'The Origins of Information Science and the International

Institute of Bibliography/International Federation for Information and Documentation (FID)'. Journal of the American Society for Information Science, vol. 48, No. (4), Apr., 1997.

- Rinaldi, A. (2009). An ontology-driven approach for semantic information retrieval on the web. Journal of ACM Transactions on Internet Technology, vol. 9 issues No. (3), Jul., 2009.
- Stevenson, S. (2010). 'Michel Aglietta and Regulation Theory'. In: Gloria J. Leckie, Lisa M. Given & John E. Buschman (eds), Critical Theory for Library and Information Science: exploring the social from across the disciplines. Santa Barbra, California: An Imprint of ABC-CLIO, LLC.).
- Toffler, A. (1980). The Third Wave. London: Pan Books Ltd in association with William Collins Sons & Co.
- Tunkelang, D. (2009). Faceted search: Syntheses lectures on information concepts, retrieval and services. California: Morgan & Claypool Publishers.
- Uyttenhove, P. & Peteghem, S. (2008). 'Ferdinand van der Haeghen's Shadow on Otlet: European Resistance to the Americanized Modernism of the Office International de Bibliographie'. In: European modernism and the information society: informing the present, understanding the past. Hampshire, Burlington: Ashgate Publishing Limited.
- Webster, Frank (2006). Theories of the Information Society. 3rd ed. New York: Routledge imprint of the Taylor & Francis Group.
- Wiggershaus, R., trans. by Robertson, Michael (1995). The Frankfurt School: Its History, Theories, and Political Significance. Massachusetts: Polity Press & Massachusetts Institute of Technology.
- Williams, R.V. (2009). Enhancing the Cultural Record: Recent Trends and Issues in the History of in the Information Science and Technology. Libraries & the Cultural Records, vol. 44, No. (3), pp.326-342.

الهوامش:

(١) هذا اختصار لـ World Wide Web

(٢) أضاف الرئيس الأمريكي باراك اوباما مهام ووظائف جديدة لأمناء المكتبات في البيت الأبيض ليعملوا كمحللي مواقع الانترنت لرصد التوجهات الجارية في الحرب على الإرهاب وذلك بإنشاء قواعد بيانات لإمداد الرئيس وأعضاء البنتاجون بالمعلومات الجاهزة في ذلك الشأن (Abend 2012).